

الفصل الثالث

الأصمعي في بغداد

رحلة الأصمعي إلى بغداد - مناقشة أخبار هذه
الرحلة - اختيار الأصمعي وصرف أبي عبيدة -
الأصمعي في مجلس الرشيد - تخصصه لرواية الشعر
والنوادير - الأصمعي في معية الخليفة بالرقعة - صلته
بالبرامكة - عودة الأصمعي بعد مقتل جعفر بن يحيى
البرمكي .

كانت بطانة الخلفاء عادة من العلماء وأرباب الأدب ، بدأ ذلك الأمويون ، فقبوا إلى
مجالسهم الشعراء والرواة ، حتى إذا جاء عبد الملك أوسع لهم أماكنهم في مجلسه ، واقتنى خلفاء
الشام أثره ، وربما اختلفوا وهم بالشام في بيت من الشعر ، أو خبر من الأخبار ، فيرسلون فيه
بريداً إلى العراق وظلت هذه الظاهرة - الاحتفاء بالعلماء - ميزة مطردة مع ازدهار الملك .
فلما كان العباسيون - نهجوا نهج الأمويين بعد أن رأوا آثارهم في الناس ، وتجنبوا إلى
العلماء . والفقهاء ، والرواة . فكان الرشيد يجلس الكسائي ، ومحمد بن الحسن على كرسيين
بجانبه ، ويأمرهما ألا ينزعجا لهضته تكريماً للعلم والعلماء ؛ كما اتخذ رواية لأشعار المحدثين
هو محمد الراوية المعروف بالبيدق . وهي وظيفة غير وظيفة صاحبنا الأصمعي الراوية .
كان محمد الراوية قصيراً ، فلقب بالبيدق لقصره ، ولكنه كان حسن الوجه ، حسن
الأداء والإنشاد ، يطرب كما يطرب الغناء ، ولعل في أخباره التي نذكر طرفاً منها ما يكشف
عن طبيعة هذه الوظيفة التي استحدثها الرشيد ، أو استحدثتها الراوية :
يقول البيدق : دخلت على الرشيد ، وعنده الفضل بن الربيع ، ويزيد بن مزيد فأنشدته
قصيدة النمرى العينية :

أى امرئ بات من هارون في سخط فليس بالصلوات الخمس يتفع

إن المكارم والمعروف أودية أحلك الله منها حيث يتسع
إذا رففت امرأة فالله رافعه وما وضعت من الأقوام متضع
نفسى فداؤك والأبطال معلمة يوم الوغى ، والمنايا صابها فزع
فبعث إليه بسبعة آلاف دينار ، فلم يعطى منها ما يرضى ، فأغضبني وأحفظني ، فأنشدت
هارون قوله :

ساد من الناس راتعٌ هاملٌ يعللون النفس بالباطل
فلما بلغت إلى قوله :

إلا مساعير يغضبون لها بسلة البيض ، والقنا الذابل
قال : أراه يُحرّضُ علىّ ، ابعثوا إليه من يحىء برأسه فكلمه فيه الفضل بن الربيع ، فلم
يغن كلامه شيئاً ، وتوجه إليه الرسول فوافاه في اليوم الذى مات فيه !^(١) .
ويقول في خبر آخر . قال لى الرشيد يوماً : أنشدنى مرثية مروان بن أبى حفصة في معن بن
زائدة التى يقول فيها :

كان الشمس يوم أصيب معنٌ من الإظلام ملبسة جلالا
هو الجبل الذى كانت معدةً نهداً من العدو به الجبالا
أقنا باليمامة بعد معن مقاماً لا نريد به زبالا
وقلنا : أين نذهب بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا
قال : فأنشدته إياها ، ثم قال : أنشدنى قصيدة أبى موسى التيمى في مرثية يزيد بن مزيد
فهى والله أحب إلى من هذه فأنشدته :

أحق أنه أودى يزيد تبييناً أيها الناعى المشيد
إلى آخر القصيدة^(٢) .

ويبدو أنه كان من مهام هذا الراوية أن تقدم إليه القصائد ، فيختار منها ما يحده مناسباً ،
ويلقيه أمام الرشيد ، فإذا أصابت هواه أرسل بجائزته إلى الشاعر وهو في منزله . وكان الراوية
يفيد من صاحب الجائزة على أنه السبب والوسيلة فيها ، وإلا غضب على الشاعر وتلمس سقطه
فما ينتجه بعد ذلك .

(١) الأغاني ١٢ : ١٩ ط التقديم .

(٢) الأغاني ١٨ : ١١٦ ط التقديم .

ويشير الخبر الذي أوردناه عن الثميري إلى بعض ملايسات هذه المهمة ، ولم تقتصر مهمة الراوية عند هذا الحد ، بل كان عليه أن يحفظ عيون القصاصد ، فقد يهفو الخليفة إلى سماع شيء منها حين لا يتيسر وجود الشاعر الذي يريده ، وقد يستريح الخليفة إلى سماع القصيدة بإلقاء هذا الراوية الذي أعيد وهبى لذلك والذي يتمتع بحسن الأداء ، وحلاوة الإنشاد . فهل كانت رواية الشعر على هذه الصورة - أو ما يقاربها - هي السبيل إلى دخول الأصمعي بلاط العباسيين ؟ ربما ؛ فالأصمعي عالم اللغة والغريب في البصرة من غير منازع ، وما كان له أن يدخل حاشية العباسيين إلا على هذه الصفة ، أما ذلك الخبر الطويل الذي أورده ابن عبد ربه في العقد ، فسنسجله بحذافيره ، ونخضعه للمناقشة العلمية ولا سيما أن الدكتور الجومرد صاحب كتاب (الأصمعي : تاريخه وآثاره) قد أدخله في حسابه ، وجعله مقدمة أوحى بها الفضل بن الربيع للأصمعي ؛ ليأخذ مكانه في بغداد قبل أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وقد حضر الاثنان ليختار الرشيد أحدهما . ولم ندر سند الجومرد في هذا إلا أن يكون اجتهد خيال اعتمد فيه على ما تصوّره من عروبة الأصمعي وشعوبية أبي عبيدة ، فيكون الأصمعي بهذا أقرب إلى الفضل بن الربيع ، وأقوى سنداً له من أبي عبيدة الذي قد يميل إلى البرامكة لاتفاقهما في الشعوبية ، ولكن تحليل الخبر ودراسته دراسة علمية ينفي ذلك تماماً : يقول ابن عبد ربه على لسان الأصمعي :

(تصرفت بي الأسباب إلى باب الرشيد ، مؤملاً للظفر بما كان في المهمة دفيناً . أترقب به طالع سعدٍ يكون على الدرك معيناً ، فاتصل بي ذلك إلى أن كنت للحرم مؤنساً بما استعملتُ به مودتهم ، فكنت كالضيف عند أهل الميرة ، فطرقهم متوجّهاً بالتحاف ، وطاولتني الغايات بما كدت أصير به إلى ملالة ، غير أني لم أزل مُحِيناً للأمل بمذاكرته عند اعتراض الفترة ، وقلت في ذلك :

وأى فتي أعير ثبات قلب وساع ما تضيق به المعاني
تجاذبه المواهب عن إباء ألا بل لا تواتيه الأمانى
فربّ معرّس للناس أجلى عن الدرك الحميد لدى الرهان
وأى فتي أناف على سمو من الهبات ملتهب الجنان
بغير توسع في الصدر ماض على العزمات كالغضب اليماني
فلم نبعد أن خرج علينا خادم في ليلة نثرت السعادة والتوفيق : وذلك أن الرشيد تبرع

الأرق بين عينيه فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر؟ فقلت : الله أكبر ! رب قيّد مضيق قد فكّه التيسير للإنعام ، أنا صاحبك إن كان صاحبك من طلب فأدمن ، أو حفظ فأتقن ، فأخذ بيدي ثم قال : أدخل ، إن يحتم الله لك بالإحسان لديه والتصويب فلعلها تكون ليلة تعوض صاحبها الغنى قلت : بشرك الله بالخير .

قال : فدخلت فواجهت الرشيد في البهو جالساً كأنما ركب البدر فوق أزراره جبالاً والفضل بن يحيى إلى جانبه ، والشمع يحرق به على قضب المنابر . والخدم فوق فرشهم وقوف ، فوقف بي الخادم حيث يسمع تسليمي . ثم قال : سلّم ، فسلمت ، فردّ ثم قال : ينحى قليلاً ، ليسكن روعه إن وجد للروعة حساً ، فقعدت حتى سكن جأشي قليلاً ، ثم أقدمت فقلت : يا أمير المؤمنين : إضاءة كرمك وبهاء مجدك مجيران لمن نظر إليك من اعتراض أذية له ، أيسألني أمير المؤمنين فأجيب . أم أبتدئ فأصيب يمين أمير المؤمنين وفضله قال : فتبسم الفضل إليّ ثم قال :

ما أحسن ما استدعى الاختبار ، واستهل به المفاتحة وأجدر به أن يكون محسناً ثم قال الفضل : والله يا أمير المؤمنين لقد تقدّم مبرزاً محسناً في استشهاده على براءته من الحيرة ، وأرجو أن يكون ممتعاً .

قال : أرجو ، ثم قال : ادن ، فدنوت ، فقال : أشاعر أم راوية ؟ قلت : راوية يا أمير المؤمنين .

قال : لمن ؟

قلت : لذي جد وهزل بعد أن يكون محسناً

قال : والله ما رأيت أوعى لعلم ، ولا أخبر بمحاسن بيان فتقته الأذهان منك . ولئن صرت حامداً أثرك لتعرفن الإفضال متوجهاً إليك سريعاً .

قلت : أنا على الميدان يا أمير المؤمنين ، فيطلق أمير المؤمنين من عقالي مجيباً فما أحبه .

قال : « لقد أنصف القارة من رامها » ، ما معنى المثل في هذه الكلمة بدياً ؟

قلت : ذكرت العرب يا أمير المؤمنين أن التبابعة كانت لهم رماة .

لا تقع سهامهم في غير الحلق وكانت تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك على الجياد البلق ، بأيديهم الأسورة ، وفي أعناقهم الأطواق تسميهم العرب القارة ، فخرج من موكب الصغد فارس معلم بعذبات سود في قلنسوته قد وضع نُشَابَتَه في الوتر ثم صاح : أين

رماة الحرب ؟ قالوا : قد أنصف القارة من رامها . والملك أبو حسان إذ ذاك المضاف إليه .

قال : أحسنت . أرويت للعجاج ورؤية شيئاً ؟

قلت : هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافي ، وإن غابا عنك بالأشخاص ، فهد يده ،

فأخرج من تحت فراشه رقعة ينظر فيها . ثم

قال : أسمعني « طارق هم طارقاً »^(٣) .

فضيبتُ فيها مضيّ الجواد في سنن ميدانه . تهديرُها أشدّاق حتى إذا صرت إلى امتداح بني

أمية ثبيت عنان اللسان إلى امتداحه المنصور في قوله :

قلت لوزير لم تصله مريمة

قال : أعن حيرة أم عن عمد ؟

قلت : بل عن عمد تركت كذبه إلى صدقه فيما وصف به المنصور من مجد .

قال الفضل : أحسنت بارك الله فيك ، مثلك يوملُ لهذا الموقف .

قال الرشيد : أرجع إلى أول هذا الشعر ، فأخذت من أوله حتى صرت إلى صفة الجمل .

فأطلت .

فقال الفضل : مالك تُضيّق علينا كل ما اتسع لنا من مساعدة السهر في ليلتنا هذه بذكر جمل

أجرب ، صير إلى امتداح المنصور حتى تأتّى على آخره .

فقال الرشيد : اسكت ! هي التي أخرجتك من دارك . وأزعجتك من قرارك وسلبتك تاج

ملكك ، ثم ماتت فعملتْ جلودها سياطاً يضرب بها قومك ضرب العبيد ثم قهقهه . ثم

قال : لا تدع والتعرض لما تكره .

قال الفضل : لقد عوقبت على غير ذنب . والحمد لله

قال الرشيد : أخطأت في كلامك يرحمك الله ، لو قلت : واستغفر الله ، قلت صواباً ، وإنما

يحمد الله على النعم ، ثم صرف وجهه إليّ وقال : ما أحسن ما أدبت في قدر ما سئلت ،

أسمعني كلمة عدى بن الرّقاع في الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

عرف الديار توهماً فاعتادها

فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب ، لم لا تأمره

أن يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفي آبائك ؟

(٣) قصيدة لرؤبة بن المعجاج .

قال : ويحك ... ! إنه أدبٌ ما يخطب أبكاره بالنسب . وقلبا يعتاض عن مثله ولأنه أسمعُ
الشعر ممن يجبره وشغلته العناية به عمره أحبُّ إلى من أن تشافهني به الرسوم . وللمتدح بهذا
الشعر حركات ترد عليك فلا تصدر من غير انتفاع بها ، ولا أكون أول مسنٍ طريقة ذكر لم
تؤدها الرواية

قال الفضل : قد والله يا أمير المؤمنين شاركك في الشوق . وأعتك على التوق . ثم التفت إلى
الفضل فقال : احذُ بنا ليلتك منشداً . هذا سيدي أمير المؤمنين قد أصغى إليك مستمعاً .
فمرَّ ويحك في عنان الإنشاد . فهي ليلة دهرك لن تنصرف إلا غانماً .
قال الرشيد : أما إذا قطعت على . فأحلف لتشركني في الجزاء . فما كان لي في هذا شيء لم
تقاسمته .

قال الفضل : قد والله يا أمير المؤمنين وطنت نفسي على ذلك متقدماً فلا تجعله وعيداً .
قال الرشيد : ولا أجعله وعيداً
قال الأصمعي : الآن ألبسُ رداء التيه على العرب كلها . إني أرى الخليفة والوزير . وهما
يتناظران في المواهب لي . فررت في سنن الإنشاد حتى إذا بلغت إلى قوله :
تُزجى أغنَّ كأنَّ إبرة روقه قلمٌ أصاب من الدواة مداها
فاستوى جالساً ثم قال : أنحفظ في هذا شيئاً ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال الفرزدق
قال عدى :

تُزجى أغنَّ كأنَّ إبرة روقه

قلت لجريو : أى شيء تراه يناسب هذا تشبيهاً ؟ فقال جرير :

قلم أصاب من الدواة مداها

فقلت لجريو : ويحك ! لكان سمعك مخبوء في فؤاده فقال جرير : أسكت . شغلني سُبُّك عن
جيد الكلام .

ثم قال الرشيد : مر في إنشادك فضيتُ حتى بلغت إلى قوله :

ولقد أراد الله إذ ولأَكَّها من أمة إصلاحها ورشادها

قال الفضل : كذب وما برَّ

قال الرشيد : ماذا صنع إذ سمع هذا البيت

قلت : ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه قال : لاحول ولا قوة إلا بالله

قال : مرّ في إنشادك ، فضيت حتى بلغت إلى قوله :

تأتيه أسلاب الأعزة عنوةً عصباً ، وتجمع للحروب عتادها

قال الرشيد : لقد وصفه بحزم وعزم لا يعرض بينها وكل ولا استدلال ، قال : فإذا صنع ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، ذكرت الرواة أنه قال : ما شاء الله !

قال : أحسبك وهمت

قلت : يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية ، فليردني أمير المؤمنين إلى الصواب .

قال : إنما هذا عند قوله :

ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها

ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع ، ولكنني أعلم أن الرجل لم يكن يخطئ في مثل هذا ، قال

الأصمعي : وهو والله الصواب ؛ ثم قال : مرّ في إنشادك ، فضيت حتى بلغت إلى قوله :

وعلمت حتى لا أسائل واحداً عن حرف واحدة لكي أزدادها

قال : وكان من خبرهم ماذا ؟

قلت : ذكرت الرواة أن جريراً لما أنشد عدى هذا البيت قال : بلى والله وعشر مئين ! قال

عدى : وقر في سمعك أثقل من الرصاص .

قال الرشيد : والله إنه لنقى الكلام في مدحه وتشبيهه

قال الفضل : يا أمير المؤمنين لا يحسن عدى أن يقول :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

قال الرشيد : بلى ، قد أحسن إذ يقول في الوليد :

للحمد فيه مذاهب ما تنهى ومكارم يعلنون كل مكارم

ثم التفت إلي وقال : ما حفظت له في هذا الشعر شيئاً حين قال :

أطفأت نيران الحروب وأوقدت نار قدحت براحتيك زنادها

قلت : ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه حك يميناً بشمال مقتدحاً بذلك ثم

قال : الحمد لله على هبة الإنعام ؛ ثم قال الرشيد : أرويت لذى الرمة شيئاً

قلت : الأكثر يا أمير المؤمنين ، قال : والله إني لا أسألك سؤال امتحان ، وما كان هذا

عليك ، ولكنني أجعله سبباً للمذاكرة ، فإن وقع عن عرفانك شيء فلا ضيق عليك بذلك

عندي ، فإذا أراد بقوله :

مر أُمِرَّتْ متنه أسدية بمانية حلالة بالمصانع
قلت : وصف يا أمير المؤمنين حماراً وحشياً أسمته بقل روضة تشابكت فروعه ، من قطر سحابة
كانت في نوه الأسد ، ثم في الذراع منه .

قال : أصبت . أفترى القوم علموا هذا من النجوم بنظرهم إذ هو شيء قلما يستخرج بغير
السبب الذي رويت لهم أصوله ، أو أدتهم إليه الأوهام والظنون فالله أعلم بذلك .

قلت : يا أمير المؤمنين . هذا كثير في كلامهم ، ولا أحسبه إلا عن أثر ألقى إليهم .

قال : قلما أجد الأشياء لا تثيرها إلا الفكر في القلوب فإن ذهبت إلى هبة الله ذكرهم بها
ذهبت إلى ما أدتهم إليه الأوهام . ثم

قال : أرويت للشاخ شيئاً ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين

قال : يعجبني منه قوله :

إذا رد من ثنى الزمام ثنت له جراناً كخوط الخيزران المموج

قلت : يا أمير المؤمنين هي عروس كلامه

قال : فأياها الحسن الآن من كلامه ؟

قلت : الرائية ، وأنشدته أبياتاً منها

قال : أمسك ، ثم قال : استغفر الله ثلاثاً . أرح قليلاً واجلس ، فقد أمتعت منشداً ،

ووجدناك محسناً في أدبك ، معبراً عن سرائر حفظك ، ثم التفت إلى الفضل فقال : لكلام

هؤلاء ومن تقدم من الشعراء ديباج الكلام الخسرواني يزيد على القدم جدةً وحسناً ، فإذا

جاءك الكلام المزين بالبديع جاءك الحرير الصني المذهب يبق على المحادثة في أفواه

الرواة . فإذا كان له رونق صواب وعته الأسماع ، ولذ في القلوب ، ولكن في الأقل منه ؛

ثم قال : يعجبني مثل قول مسلم في أبيك وأخيك الذي افتتحه بمخاطبة حليته مفتخراً

عليها بطول السرى في اكتساب المغام حيث قال :

أجذك هل تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك ينشر

صبرت لها حتى تجلّت بغرة كفره يحى حين يذكر جعفر

أفرايت أطف ما جعلها معدناً لكمال الصفات ومحاسنها ؛ ثم التفت إلى فقال : أجد

ملالة ، ولعل أبا العباس يكون لذلك أنشط ، وهو لنا ضيف في ليلتنا هذه ، فأقم معه مسامراً

له ثم نهض ثم قال : يا غلام ، على بصالح الخادم فقال : يؤمر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم في ليلته هذه . قال الفضل : لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه أحد غيره - لدعوت لك بمثل ما أمر به أمير المؤمنين ، فدعا له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين إلا ألف درهم قال الأصمعي : فما صليت الظهر إلا وفي منزلي تسعة وخمسون ألف درهم^(٤) .

ذكر هذا الخبر - ابن عبد ربه - صاحب كتاب العقد الفريد ، عن القاسم بن محمد السلامي ، عن حماد بن بشر الأطروش ، عن يحيى بن سعيد ، ولقد جاهدنا في تتبع هؤلاء الرواة في سياق تحقيقنا للنص ، وتحققنا من معاصرة يحيى بن سعيد للأصمعي على أنه في غالب الأمر يحيى بن سعيد العقيلي حيث ثبت أنه كان معاصراً للأصمعي في حكاية له مع العتابي ذكرها أبو الفرج في الأغاني^(٥) .

أما حماد بن بشر الأطروش ، والقاسم بن محمد السلامي فلم نستطع الوقوف على شيء من أمرهما نفيد منه التبع التاريخي أو النقل لهذه الرواية ، وربما كانا من الرواة الذين لم يحظوا كثيراً باهتمام المؤرخين ، مما جعلنا نعيد قراءة النص نقيس لغته وأسلوبه وطريقة سرده على النحو الذي كان غالباً في عصره ، وكلما تأملنا في الخبر ملنا إلى الشك فيه : فلم يكن من المؤلفون أن ترى مثل هذه الأخبار الطوال إلا في موضوعات تتعلق بسلامة الدولة ، أو في وصف غزوة من الغزوات ، أو الحكاية عن قائد أو ناثر خرج على أمر السلطان ، وما يتبع ذلك من انتصاره أو فشله أو اختفائه أو توبته ، وما يدور حول ذلك من قصص ، أما في مثل هذا الخبر الذي لا يتجاوز مدلوله - ذهاب راوية لقصر الخلافة ، واستحسان الخليفة له - فلم يكن من المؤلفون أن يبنى على هذا الاستطراد .

ومن ناحية أخرى فإن أسلوب الخبر ، والعمل في صياغته - يدل على أنه أعدّ إعداداً لغرض سياسي ، يستهدف الإشادة بالأمويين ، ومن حبكة التخريج أن تخرج هذه الإشادة من بلاط العباسيين !

يقول الخبر : إن الرشيد أرق ليلته ، فأرسل في طلب من يعينه على السهر ، فأى عون هذا

(٤) العقد الفريد ٥ : ٣٠٩ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ .

(٥) الأغاني ١٢ : ٨ ط دار الكتب .

إذا كان الخير كله أو جله يشيد بآثر بني أمية وإذا عرفنا كراهية العباسيين لأسلافهم من بني أمية حتى كانوا يكافنون من يستهم أو يقلل من شأنهم - استبعدنا أن تكون هذه الإشادة بهم في قصر الرشيد ، وأن يكون محور هذه الإشادة هو الرشيد نفسه ، يحاور الأصمعي ويستعيده ، حتى يتأفف الفضل بن يحيى من كثرة ما سمع من عبارات الثناء والمدح في بني أمية ، والخليفة مع هذا يهش ويطرب ، ويعينه هذا الطرب على الخروج من الضيق والأرق !

أما تعليل هذا المسلك من الرشيد بأنه الرغبة في الأدب (لأنه أدب ما يخطب أبكاره بالنسب وقلما يعتاض عن مثله) على حد تعبير الرشيد ، وأنه بعمله هذا يضع أصولاً أمينة في نقل الرواية - فأمر يصعب تصديقه ، وأمام الرشيد من الأدباء والشعراء والرواة من يعتبرون أفضلاً في هذه الفنون إلا أن يكون الرشيد قد نسي عباسيته والتعصب لها ، وأعد نفسه لسماح النقد فيه وفي آباءه ، والإشادة بخصومه ، أو قبول كلمة الحق ولو كانت على حساب هذه العvisية فهل كان هذا من طباع الرشيد ؟

الأخبار لا تشير إلى ذلك ، بل كان كجميع ملوك الدولتين - الأموية والعباسية ، باستثناء الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز - يوسعون للرواة والشعراء أماكنهم في مجالسهم ، كلفين أشد الكلف بسماح المدح في ذواتهم وفي آباءهم ، مفرطين في عطاياهم بقدر إفراط الشعراء في مدحهم ، بل كان الرشيد يضيق أحياناً بكلمة الحق إذا خالفت هواه ، وقد يخالف عهداً سبق أن قطعه على نفسه^(٦) .

والرشيد في هذا كغيره من الخلفاء والملوك والأمراء في كل عصر وفي كل دولة ، يكره أن يكون المدح والإشادة في أعدائه ، وكان عداء العباسيين لأسلافهم من الأمويين من أكبر الأسباب الداعية إلى التكنيل بهم ، وبمن يلوذ بهم أو يذكرهم بالقليل من المدح .

يقول أبو الفرج الأصفهاني في هذا السياق ، ومع الرشيد نفسه قصة قينة تعرضت للقتل بسبب بيت غنته في مدح الأمويين لولا أن تداركت ، فحرقت البيت ، فصار في هجاء الأمويين ، وزادت أن جعلتهم معدناً للنفاق ، ولولا تدخل يحيى بن خالد البرمكي بحكمته ،

(٦) ذكر الطبري أن الرشيد دعا يحيى بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب الذي كان قد ظهر بالديلم ، إلى أن آمنه أماناً محطه . وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايتهم ، دعا به الرشيد بعد ذلك . وأحضر الأمان الذي كان أعطاه يحيى فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول في هذا الأمان ؟ قال : هو صحيح ، فحاجة في ذلك الرشيد ، واحتملها على محمد بن الحسن ، ثم سأله أبو البختري فقال : هو متقص من وجه كذا وكذا ، فقال الرشيد : أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك ومزق الأمان : تاريخ الطبري ١٠ : ٥٧ .

واحتياله للأمر ما سكن قلب القينة من الرعب .

يقول أبو الفرج : اعترض هارون الرشيد قينة ، فغنت :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يخلمون إن غضبوا
فلما ابتدأت تغير وجه الرشيد ، وعلمت أنها قد غلظت ، وأنها إن مرت فيه قُلت ،
فحرّفت البيت وغنّت :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يجهلون إن غضبوا
وأهم معدن النفاق فما تفسد إلا عليهم العرب

فقال الرشيد ليحيى بن خالد : أسمعت بأبا علي ؟ ، فقال : يا أمير المؤمنين تبتاع ، وتسنى
لها الجائزة ، ويعجل لها الإذن ، ليسكن قلبها (٧) .

فأين هذا وما حفل به الخبر السابق من مدح للأمويين ؟ والأخبار كثيرة متداولة إذا أردنا
أن ندلل على عداوة الرشيد لأسلافه من بنى أمية .

وفي الخبر شيء آخر هو المبالغة والإغراق حتى يتناظر الرشيد ووزيره ويسبها في تقرّظ
الأصمعي ، ويطلب الخليفة من الفضل ألا يقاطعه ، ويلوح له بمشاركته في الجزاء ؛ إذ لم
ينفرد وحده بهذه المتعة حتى يقول الأصمعي : (الآن ألبس رداء التيه على العرب كلها !) .
وفي معاناة الرشيد للفضل تجده تصدّى لمهاجمة الفرس عند ذكر الجمل بقوله :
(اسكت ! هي التي أخرجتك من دارك ، وأزعجتك من قرارك ، وسلبت تاج ملكك ، ثم
ماتت فعملت من جلودها أسياطاً يضرب بها قومك ضرب العبيد ... إلخ) وهذا كلام
تستوقفني شدته إذا نُسب للرشيد ، والرشيد يومئذ قد اتخذ يحيى بن خالد البرمكي والداً يقول
له : يا أبت ؛ واتخذ الفضل وجعفر أخوين له ، وهو والفضل رضيعا ثدى أم واحدة ، وكان
الوزيران يؤديان ولدى الرشيد - الأمين والمأمون - والبرامكة يومئذ في أوج مجدهم وأقرب
الناس إلى قلب الرشيد وأما مهاجمته للفرس على النحو الذي ظهر في الخبر فهو أقرب إلى
العقوب ، يُعيرهم بزوال ملكهم ، وخروجهم من ديارهم ، وضربهم بالسياط ضرب العبيد
وهو يعلم أن دولة العباسيين قامت على أكتافهم .

وفوق هذا - فالأصمعي كرجل من كبار رجال البصرة - ما كان ليذهب إلى بغداد على
هذه الصورة : فقد كان رجال البصرة يجدون علمهم أسمى من السلطان ، وكانت هذه الروح

فيهم منذ بدأت الحركة الفكرية في البصرة ، ولقد كان الحسن البصري يغضب أشد الغضب حين يجد القراء يقفون على باب ابن هبيرة ، والخليل بن أحمد يرسل إليه سليمان بن على (الأمير العباسي) وكان والياً على الأهواز يرجو منه الشخص إلى لتأديب ولده ، فيخرج للرسول خبراً يا بساً ويقول : ما عندي غيره ! وما دمت أجده فلا حاجة لي في سليمان (٨) . وبعد فإني أسيل إلى القول بأن واضح هذا الخبر أموى الهوى ، وأن تسجيله على هذه الصورة ، وإلحاقه برواية الأصمعي الذي كان معروفاً برياسته في الرواية - لم يكن إلا وسيلة لتخليد المديح في بنى أمية والاحتيايل بذلك على أذهان الناس بهذه الحبكة القصصية ، وأن يدبر دفنها كبير العباسيين هارون الرشيد .

ولا يغرب عن بالك ، أن ابن عبد ربه كان يعيش في دولة بنى أمية الجديدة في الأندلس ، ورأيه فيهم يتفق مع ما جاء في الخبر فهو أموى الهوى أتدلسى الدار ، لم يرحل إلى المشرق ، وإنما استمد علمه من رجال الأندلس من أمثال الخشني ، وابن وضاح ؛ كما اعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، وظهر ذلك واضحاً في ترتيب كتابه (العقد الفريد) ، كما أفاد مما كتبه القالي في أماليه ، وهذان الكتابان لم يتناولوا الخبر ، أما عن أمويته فالمعروف عن ابن عبد ربه أنه لازم الأمير عبد الله الذي تولى عرش قرطبة سنة ٢٧٥ هـ ، ونادمه ، ومدحه ، وذكر ، غزواته في قصيدة طويلة .

والخبر الذي نستريح إليه ، ونبدأ به صلة الأصمعي بالرشيد هو الذي ذكره كل من السيرافي ، وابن خلكان : فقد أشارا إلى رغبة الرشيد في استقدام عالم من علماء العربية وروايتها ، فذكروا له أبا عبيدة معمر بن المثنى ، وأبا سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، فأشخصا إليه ، واستقبلا في بغداد استقبالا يليق بهما ، وأعدّ لهما الفضل بن يحيى مأدبة فاخرة يشير إليها أبو عبيدة ، فيقول :

(لما حُملت إلى الرشيد - أنا والأصمعي - تغدينا عند الفضل بن يحيى فجاءونا بأطعمة والله ما سمعت بها قط ، وإذا بين يدي الأصمعي سملك كنعد وكامخ شبت ، فقال لي : كُلْ من هذا يا أبا عبيدة ؛ فإنه كامخ طيب ... !) (٩) فلما انتهت هذه المقدمات حُملا إلى الرشيد ،

(٨) أخبار النحويين البصريين ٣٠ ، ٣١ ط الحلبي .

(٩) أخبار النحويين البصريين ٥٤ .

فاختار الأصمعي لمجالسته : لأنه كان أحسن من أبي عبيدة منشأ ، وأصلح لمنادمة الملوك ^(١١) .
والذين يعرفون أبا عبيدة يذكرون من أخباره ما يتفق مع هذا الوصف :
كان أبعد ما يكون عن السباحة ولين الجانب ، حاد البادرة لا يتلطف في قول ، وكان
يكره العرب ، ويبحث في مثالبها ولقد تصدى له مَنْ وَاجَّهه بالعنف أيضاً قائلاً له : (تقع في
الناس فن أبوك ؟) ^(١٢) ، ولم يكن أحد بالبصرة إلا وهو يداجي أبا عبيدة ويتقيه على
عرضه ^(١٣) .

فاذا أضفنا إلى هذا أنه كان بالرغم من جمعه للعلم ، يخطئ إذا قرأ القرآن نظراً ، كما كان
لا يحسن أن يقيم البيت من الشعر - رأينا أن أبا عبيدة لا يصلح حقيقة لمنادمة الرشيد الذي
اكفى بأن أخرج له صلة ، ثم صرفه ^(١٤) .
ويبدو أن حضور الأصمعي وأبي عبيدة إلى بغداد كان أمراً خطيراً ، وحادثاً له حديث آثار
تعليقات الناس ، وإبداء آرائهم في الرجلين : قيل لأبي نواس : قد بعثوا لأبي عبيدة
والأصمعي ليجمع بينهما ، فقال : أما أبو عبيدة ، فإنهم إن أمكنوه من سيفره قرأ عليهم
أساطير الأولين ، وأما الأصمعي فلبل في قفص يطربهم بنغماته ! ^(١٥) .

اتصل الأصمعي بالرشيد ، وأصبح من سُمَّاره ، ووجد في هذه الثقلة إرضاء لمطامعه
المادية ، والأدبية أيضاً ، ذلك أن بغداد قد زهت بعلمائها ، وبمن وفد إليها من رجال البصرة
والكوفة ، وقد أقيمت فيها المناظرات بين العلماء ، وأحسب أن مجالس الرشيد قد أمدت
الأصمعي بالكثير من أسباب الأدب ، واللفظ المتخير ، والعبارات المنتخبة :
كان الأصمعي في مجلس الرشيد يوماً ، وأتى بعبد الملك بن صالح يرفل في قيوده ، فأخذ
الرشيد يغلظ له في القول ، ويتوعد ، فقال له : (اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك ، وراقبه في
رعاياك التي استرعاك ، فقد سهلت لك والله الجسور ، وجمعت على خوفك ورجائك
الصدور ، وكنت كما قال أخو جعفر بن كلاب :

مقام ضيق فرجته بلسانٍ أو بيانٍ أو جدلٍ

(١٠) ، (١١) ، (١٢) إنباه الرواة ٢ : ٢٨١ .

(١٣) وفيات الأعيان ٤ : ٤٢٣ .

(١٤) عيون الأخبار ٢ : ١٣٠ .

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامى أو رحل
فأراد يحيى بن خالد أن يضع من مقدار عبد الملك عند الرشيد فقال له : يا عبد الملك :
بلغنى أنك حقود ، فقال : أصلح الله الوزير إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندى فإنهما
لباقيان فى قلبى ، فالتفت الرشيد إلى الأصمعى فقال : يا أصمعى ، حررها ، والله ما احتج
أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك (١٥) .

هذه صورة من الصور الكثيرة التى تفيض بها مجالس الخلفاء عادة : اعتذار رقيق ، أو
شفاعة مهذبة ، أو عرض جميل ، أو شعر منتقى إلى غير ذلك من فنون القول . والأصمعى
قد تزود من العلم ، وأسعفته حافظته على استظهار الشعر وغريبه ، واللغة ودقائقها ، وعرف
القراءات ، وسمع الحديث ، وهو فوق كل هذا صاحب عبارة جميلة : يذكر ذلك الجاحظ
فيقول : (أعذب من تحدث وحكى) وقال فيه أبو نواس (بلبل يطربهم بنغماته) ، ورجل
هذا شأنه لن يقتصر عزمه على ما ينتظره من نفع مادي ، ولكنه اتصل بالعلماء فى هذه
المجالس ، وخاض فيما خاضوا فيه ، وبادلهم المعرفة ، فأعطاهم إن شاء من علمه ، وأخذ حتماً
مما عندهم ، فحق للعلب أن يقول : (قدم الأصمعى بغداد ، وأقام فيها مدة ، ثم خرج منها
يوم خرج وهو أعلم منه حيث قدم بأضعاف مضاعفة) (١٦) .

وكان على الأصمعى أن يمرّ فى اختيارات دقيقة فى مجال آخر غير مجال الدراسة والأدب ،
وهى قواعد الجلوس إلى السلطان ، واختيار الوقت المناسب الذى يبدأ فيه حديثه ، واختيار
اللفظ المناسب ، وما يجب أن يقال أمام الناس ، وما يجب أن يؤجل لحين الحلوة ، إلى غير
ذلك .

ومع ما قيل عنه من عدوية ألفاظه ، وخفة روحه - فلقد كان أول أمره أشبه بالبدوى
الحشن يحتاج إلى التوجيه والصقل ، وتعرض بسبب هذه الحشونة إلى سماع التوجيه الرقيق من
الرشيد تارة ، والحشن من رجال المجلس تارة أخرى :

كان فيه اندفاع العالم المتحمس الذى يحرص على السبق فى الإجابة ، فتخرج الكلمات
أحياناً فجّة على الفطرة : سأله الرشيد يوماً : من أمّ فلان ؟ (لإنسان من العرب) فقال
الأصمعى : (على الخير سقطت يا أمير المؤمنين) . فقال الفضل بن يحيى : أسقط الله أنفك

(١٥) مروج الذهب ٦ : ٣٠٤ ط باريس .

(١٦) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٧ .

وعينيك ، أهكذا تخاطب الخلفاء ! (١٧) .

ودخل على الرشيد بعد غيبة طويلة فقال له : يا أصمعي ، كيف كنت بعدى ؟ ، فقال : ما لاقنني بعدك أرض فتبسم الرشيد ، ولما خرج الناس قال له : ما معنى قولك ما لاقنني أرض ؟ فقال : ما استقرت في أرض كما يقال : فلان لا يليق شيئاً : أى لا يستقر معه شيء . فقال : هذا حسن ، ولكن لا ينبغي أن تكلمني بين يدي الناس إلا بما أفهمه ، فإذا خلوت فعلمني ، فإنه يقبح بالسلطان ألا يكون عالماً : إما أن أسكت ، فيعلم أني لا أفهم إذ لم أجب ، وإما أن أجيب بغير الجواب ، فيعلم من حولي أني لم أفهم ما قلت قال الأصمعي : فعلمني أكثر مما علمته (١٨) .

ثم يتصل سبب الأصمعي بالرشيد بعد ذلك ، وتتوطد هذه الصلة ، ويصبح من البارزين في مجلس العلم ، وهو في هذا المجلس صاحب الشعر والخبر والتوارد ، وإذا كان للرشيد مستشارون في شتى شئون الدولة فلقد كان الأصمعي أستاذاً مبرزاً في الشعر ومعانيه : يسأله الرشيد عن البيت والقصيدة ، وعن مناسبتها ، وما يتصل بذلك من أقوال الأعراب ونواذرهم ، في جد إن أراد الخليفة علماً ومعرفة ، وفي هزل إن جلس للترفيه والترويح ، ومن قبيل ما يروى في هذا قول الأصمعي :

دخلت على هارون الرشيد وبين يديه بدرة ، فقال : يا أصمعي ، إن حدثني بحديث في العجز فأضحكتني وهبت لك هذه البدرة قال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينا أنا في صحارى الأعراب في يوم شديد البرد والريح - إذ أنا بأعرابي قاعد على أجمة ، قد احتملت الريح كسائه فألقته على الأجمة ، وهو عريان ، فقلت له يا أعرابي : ما أجلسك ها هنا على هذه الحال ؟ ، فقال : جارية واعدتها يقال لها سلمى ، أنا منتظر لها ، فقلت : وما يمنعك من أخذ كسائك ؟ ، قال : العجز يوقفني عن أخذه قلت له : فهل قلت في سلمى شيئاً ؟ قال : نعم ؛ قلت : أسمعني لله أبوك ! قال : لا أسمعك حتى تأخذه وتلقيه على ؛ فأخذته ، وألقيته عليه ، فأنشأ يقول :

لعل الله أن يأتي بسلمى فيبطحها ويلقيني عليها
ويأتي بعد ذاك محاب مزن يطهرنا ولا نسعى إليها

(١٧) الوزراء والكتاب ١٨٩ .

(١٨) أخبار التحوين البصريين ٢٤ ، وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٦ .

فاستضحك هارون حتى استلقى على ظهره ، وقال : خذ البذرة لابورك لك فيها^(١٩) .
 وربما أراد الرشيد أن يحدد اختصاصه بالشعر ، ويجعله وقفاً عليه ، فكان ينتهر المناسبة ؛
 ليثنى عليه أمام غيره من رجال الأدب ، حتى يتركوا له هذا الجانب ؛ نلمح هذا في كثير من
 المحاورات والمناظرات التي دارت في مجلس الرشيد ، سأل الخليفة عن بيت الراعي :
 قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أر مثله مقتولا
 ما معنى محرماً ؟

فتطوع الكسائي بالإجابة وقال : أحرم بالحج ، فقال الأصمعي : والله ما كان أحرم
 بالحج ، ولا أراد الشاعر أنه أيضاً في شهر حرام فيقال أحرم إذا دخل فيه ؛ كما يقال : أشهر
 إذا دخل في الشهر وأعام إذا دخل في العام فقال الكسائي : ما هو غير هذا وفيه المراد ؟ ،
 فقال الأصمعي : ما أراد عدى بن زيد في قوله :

قتلوا كسرى بلبيل محرماً فتول لم يُمتّع بكفن
 أى إحرام لكسرى ؟

فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : كل من لم يأت شيئاً يوجب عليه عقوبة فهو محرم ، لا
 يحل شيء منه ؛ فقال الرشيد : ما تطاق في الشعر يا أصمعي ثم قال : يا على ، إذا جاءك
 الشعر فإياك والأصمعي^(٢٠) .

والأمثلة على تناوله الشعر والخوض فيه وفي معانيه بين يدي الرشيد كثيرة تتجاوز الحصر ،
 ولا بأس أن نورد طرفاً منها :

قال : دخلت على الرشيد يوماً وهو محموم ، فقال : أنشدني يا أصمعي شعراً مليحاً ،
 فقلت أرسيناً فحلاً يريد أمير المؤمنين أم سجيحاً سهلاً ؟ فقال : بل غزلاً بين الفحل
 والسهل ، فأنشدته للعديل بن الفرخ العجلي :

صحا عن طلاب البيض قبل مشيه وراجع غص الطرف فهو خفيض
 كأنى لم أزع الصبا- ويروقى من الحى أحوى المقلتين غضبيض
 دعاني له يوماً هوى فأجابه فؤاد إذا يلقي المراض مريض
 لمستانسات بالحديث كأنه تهلل غر برقهين وميض

(١٩) العقد الفريد ٣ : ٤٩٧ .

(٢٠) أخبار النحويين البصريين ٦٠ .

فقال لى : أعدها ، فلما زلت أكررها حتى حفظها^(٢١) .

ودخل الأصمعى على الرشيد يوماً وهو يأكل الفالودج ، فوجد المناسبة ليسأله عن خبر مشهور لمزدأخى الشماخ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن مزرداً كان رجلاً جشعاً نهماً ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد عليه ، وكان ذلك مما يُضربه ويحفظه ، فذهبت يوماً فى بعض حقوق أهلها ، وخلفت مزرداً فى بيتها ورحلها ، فدخل الخيمة ، فأخذ صاعين من دقيق ، وصاعاً من عجوة ، وصاعاً من سمن ، فضرب بعضه ببعض ، فأكل ، ثم أنشأ يقول :

ولما مضت أُمى ترور عيالها هجمت على العكم الذى كان تمنع
خلطت بصاعى حنطة صاع عجوة إلى صاع سمن فوقه يتربع
وذيلت أمثال الأثافي كأنها رموس رخال قطعت لا تجمع
وقلت : لبطنى أبشرى اليوم إنه حمى آمن مما تخاف وتفرع
فإن كنت مصفورا ، فهذا دواؤه وإن كنت غرثاناً فذا يوم تشيع !^(٢٢)

وتبوأ الأصمعى مكاناً عالياً لدى الرشيد حتى كان يرفعه على أنى يوسف القاضى^(٢٣) واختصه بأسئلته عن الشعر والنوادر ، فإن كان حاضراً بالمجلس تكلم فيما يطلب إليه منها منفرداً أو مشتركاً مع غيره من الحاضرين على قدر ما تسمح به مادة المدايسة .

ولقد أفاد الأصمعى من تجاربه ، وتمرس بملايسات المجالس ، فأصبح ضئيلاً برأيه لا يفرط فيه ، فكان يستبقى مادته فى صدره حتى يفرغ كل من رأيه . فإن أصاب القوم فيما تناقشوا فيه فليس على الأصمعى من حرج ، وإذا احتاجوا إلى رأيه بلغ بهذا الرأى مكان الصدارة عندهم وعند الرشيد جميعاً ، وكان بذلك مستحقاً لثناء الخليفة ، فكان يقول له فى أكثر من مناسبة ما يفهم منه هذا الرضا كقوله : (ما تطاق فى الشعر يا أصمعى !) أو (أنت شيطان الشعر !) كما كان يقول للكسافى : (إذا جاءك الشعر فأياك والأصمعى) .. إلى غير ذلك .

وإذا كان المجلس خالياً من الأصمعى أرسلوا فى طلب الإجابة منه ، وبالرغم من أن بطانة الرشيد كانت ترخر بالأدباء والعلماء والرواة فإن هؤلاء جميعاً تركوا للأصمعى غريب الشعر والنوادر اعترافاً منهم باقتداره عليها ، وكان الكسافى الذى يحظى من الخليفة بتقدير كبير يقول

(٢١) الأغاني ٢٠ : ١٩ .

(٢٢) العقد الفريد ٦ : ٣٠٢ . وعيون الأخبار ٣ : ٢٠٤ .

(٢٣) مقلمة التهذيب للأزهري ٤٨ .

للأصمعي : (لست أعرض لك في الشعر والغريب والمعاني ، فدعني والنحو !)^(٢٤) .
سأل الرشيد يوماً عن البيت الذي عجزه :

(ومن يسأل الصعلوك أين مذهبه ؟)

فلم يعرفه أحد ، فقال إسحق الموصلي : الأصمعي مريض ، وأنا أمضي إليه فأسأله عنه ؛
فقال الرشيد : احمّلوا إليه ألف دينار لنفقتة ، واكتبوا في هذا إليه ؛ فجاء جواب
الأصمعي : أنشدنا خلف لأبي الشناش النهشلي :

وداوية تبهاء يخشى بها الردى سرت بأبي الشناش فيها ركائبه
ليدرك ثأراً أو ليكسب مغنماً جزيلاً ، وهذا الدهر جم عجائبه
وسائله : أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذهبه^(٢٥)

ازداد الأصمعي تقرباً من الخليفة ، فكنا نلمحه يتفرد به يشاركه في السهر والسمر ،
يقول : بينا أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ،
ويضطجع مرة ، ويبكي مرة ثم أنشأ يقول :

قلد أمور عباد الله ذا ثقة موحد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوى خطل لا يفهمون إذا ما معشر فهموا
فلما سمعت ذلك منه علمت أنه يريد أمراً عظيماً ، ثم قال لمسرور الخادم : على يحيى ؛
فما لبث أن أتاه ، فأخذ يتحدثان فتحت جانباً بحيث أسمع كلامها وافترقا على أن
يعقد الأمر للمأمون بعد الأمين^(٢٦) .

وفي مرة أخرى يقاجي أمير المؤمنين ، ويدخل عليه من غير إذن كأنه أصبح من خواصه ،
يقول : دخلت يوماً على الرشيد وهو ينظر في كتاب ، ودموعه تنحدر على خديه ، فظلت قائماً
حتى سكن ، وحان منه التفاته فقال : اجلس يا أصمعي ، فجلست ، فقال لي : رأييت ما
كان ... ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأييت هذا ثم رمى
بالقرطاس إليّ ، فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جليل ، وهو :

هل أنت معتبر بمن خُلِيتَ منه غداة مضى دساكره

(٢٤) إنباه الرواة ٢ : ٢٧٢ .

(٢٥) ديوان الحماة ١١٥ . والمهر ١ : ١٦٧ .

(٢٦) مروج الذهب ٦ : ٣٧٣ طه باريس .

وبمن أذل الصوت مصرعه فتيأت منه عشائره
وبمن خلت منه أسرته وبمن خلت منه منابره^{٢٧}
أين الملوك وأين غيرهم صاروا مصيراً أنت صائره
يا مؤثر الدنيا بلذته والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك أن تنال من الدنيا فإن الموت آخره
ثم قال : كأي والله أخاطب بذلك دون الناس ! (٢٧) .

وكان يسامر الرشيد في يوم أمطرت فيه السماء واستبشر الناس ، فسأله الرشيد أن ينشده في المطر ، فقال : عندي ما أقوله وأخشى أن يسمعه جعفر بن يحيى ! قال : ما هو ؟ قال : حدثني أعرابي قال : (أصابتنا سنة مجدية ، وعندنا رجل غنى وله كلب ، فجعل الكلب يعوى جوعاً فأنشد صاحبه يقول :

تشكى إلى الكلب شدة جوعه وفي مثل ما بالكلب أو بي أكثر
فقلت : لعل الله يأتي بغيته فيضحى كلانا قاعداً يتأمر
كأني أمير المؤمنين من الغنى وأنت من النعمى كأنك جعفر !

فأغرق في الضحك قائلاً : قاتله الله من أعرابي (٢٨) .

ومن حق الرشيد أن يستأثر بالأصمعي ، ويجعله في معيته أينما حل وكيفما سار : فهو في الرقة إذا كان الرشيد بالركة ، وهو في الحجاز عندما يؤدي الرشيد الفريضة ، ولا يكاد ينفصل عن معيته إلا في أوقات الغزو ، وفي مجالس الرشيد الخاصة والتي ليس للأصمعي مكان فيها ، وهو يروى عن هذه الصحبة أخباراً جمة ذكرنا بعضها في أماكنها من هذا البحث ، وتركنا أكثرها مكتفين بما نذكره على سبيل التمثيل . والأصمعي بدوره قد تهاها لهذه الصحبة والسفر كلما طلب منه ذلك ، وكان يجمع كتبه في صناديق يحملها معه ، وهي من الكثرة بحيث كان يحمل منها ثمانية عشر صندوقاً إذا خفف^(٢٩) . ويروى الأصمعي خبراً بالركة ، قبل انقضاء معيته مع الرشيد بعامين فيقول :

ركب الرشيد في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة ، فدخلت الميدان

(٢٧) مروج الذهب ٦ : ٣٥٩ .

(٢٨) العقد الفريد ٢ : ٣٠٤ .

(٢٩) الأغاني ٥ : ٦٤ ط بولاق ، ٥ : ٣٠٢ دار الكتب .

لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين ، والحلبة يومئذ أفراس الرشيد ولولديه الأمين والمأمون وسليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر ، فجاء فرس أدهم يقال له الربد هارون الرشيد سابقاً ، فابتهج لذلك ، وعلم ذلك في وجهه وقال : عليّ بالأصمعي ، فنوديت له من كل جانب ، فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه فقال : يا أصمعي ، خذ بناصية الربد ، ثم صفه من قونسه إلى سنبكه فإنه يقال : إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، وأنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حمزة (كنية جرير) ، قال : فأنشدنا لله أبوك ، فأنشدته :

وأقب كالسرحان تم له ما بين هامته إلى النسر
رحبت نعامته ووفر فرخه وتمكن الصردان في النحر
إلى آخر القصيدة ، وهي ثلاثة عشر بيتاً ، قال : وحصلت على عشرة آلاف درهم (٣٠) .
ويورد الخطيب البغدادي خبراً يشترك فيه الأصمعي وابن أبي حفص الشطرنجي يتسابقان إلى شعر يصيب المعنى الذي في قلب الرشيد لقاء عشرة آلاف درهم ، ثم لا يلبث الخليفة أن يشاركهما شعر يقولوه هو (٣١) .

ويبدو أن الإخباريين ، والقصاص ، وذوى الأهواء قد وجدوا في الرجلين اللأمعين الرشيد والأصمعي - هدفًا يتسع لأغراضهم ، فأسندوا إلى مجلس الشعر واللغة والغريب في قصر الخليفة ما يحقق هذه الأغراض ، وفي كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وأغانى الأصفهاني ، وزهر الآداب للحصري القيرواني - أنباء الأصمعي في مجلس الرشيد ، وفيها ما يتفق مع طبيعة الرجلين ، وفيها ما لا يتفق أيضاً ، ويحتاج تخليصه إلى جهد شديد .

صلة الأصمعي بالبرامكة :

إذا تجاوزنا عن الخبر الطويل الذي ذكره ابن عبد ربه في كتاب العقد ، وجعل سبيل الأصمعي إلى الرشيد تمسحه بالحرس - وجدنا صلته بالبرامكة تبدأ فور وصوله إلى بغداد ، فيقيم له الفضل بن يحيى البرمكي مأدبة فاخرة جمع عليها صنوف الطعام من سلك كنعد ،

(٣٠) العقد الفريد ١ : ١٩٤ . والمر ١ : ١٨٢ . وبلوغ الأرب ٣ : ٩٧ على اختلاف في الرواية .

(٣١) تاريخ بغداد ١٤ : ٩ و ١٠ .

وكامخ جهز بالشبت إلى غير ذلك ، وكان الأصمعي يشير على أبي عبيدة ويدعوه إلى تناول هذه الأطعمة ، ولكن أبا عبيدة - وربما أحس بأن القوم قد بيتوا اختيارهم للأصمعي - كان يرد عليه في حدة : ما فررت من البصرة إلا من هذه الأطعمة ! (٣٢) .

وتشير أخبار أخرى إلى أن جعفر بن يحيى كان سبب الأصمعي إلى الرشيد : ذكر ذلك الجهمشيارى فقال : إن جعفر بن يحيى كان سبب الأصمعي إلى الرشيد ، وكان بين الأخوين جعفر والفضل خصومة تصل بتنافسها على بعض مقاليد الأمور حتى كاد يَسْع (٣٣) كلُّ منهما صاحبه : فكان الفضل إذا أراد أن يكيد لجعفر أهان الأصمعي وذهبنا نحس : هل هو الذي أشار باستقدامه من البصرة أو كان صاحب الاختيار وتفضيله على أبي عبيدة ؟ وسواء كانت هذه أو تلك فقد توطدت صلة الأصمعي بجعفر ، وأصفاه مدحه ، وانحاز إلى جانبه وقال فيه :

إذا قيل من اللندی والعلا من الناس - قيل الفتي جعفر
وما إن مدحت فتى قبله ولكن بنو برمكٍ جوهر
وبالرغم من المدة الطويلة التي قضاها الأصمعي في كنف الرشيد ، وحسن رأى الخليفة فيه - فإنه لم يقدم إليه شيئاً من كتبه على عادة العلماء في ذلك الوقت ، ولكنه أهدي لجعفر كتابه (النوادر) الذي كان فيما يبدو كتاباً ثميناً تأثر به العلماء وعملوا على نمطه .

ولجعفر مع الأصمعي مداعبات تدل على عمق ما بينهما ، وإن انتهت بحرمان الأصمعي من جائزة جعفر : زعم أبو يعقوب الخريزمي أن جعفر بن يحيى أراد يوماً حاجة كان طريقه إليها على باب الأصمعي ، وأنه دفع إلى خادم له كيساً من النقود فيه ألف دينار ، وقال له : سأنزل في رجعتي إلى الأصمعي ، وسيحدثني ويضحكني ، فإذا كان كذلك فضع الكيس في حجره ؛ ثم صار إليه ومعه أنس بن أبي شيخ ، فحدثه الأصمعي بكل شيء ، فلم يضحك وانصرف ، فقال له أنس : أضحكك بجهده فلم تضحك ، وليس عادتك رد شيء . قد أمرت بإخراجه من بيت مالك فقال له جعفر : ويلك ... ! لقد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم ، ولم أدخل له بيتاً قبل هذه المرة ورأيت حبه مكسوراً ، وعليه برنكان منجرد ، ونحته مصلى وسخ ، وكل ما عنده رث وأنا أرى لسان النعمة أنطق من لسانه ، وأن ظهور الصنعة

(٣٢) أخبار النحويين البصريين ٥٤ .

(٣٣) يسع : يعيب ويشتم .

أمدح وأهجي من مديحه وهجائه فعلام أعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده ، ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ثم تمثل بيت نصيب :

فعاوجا فأنثوا بالذي أنت أهله ولو سكثوا أنثت عليك الحقائق (٣٤)
وبالرغم من هذا الحرمان الذي أصاب الأصمعي فإنه ظل على هواه لجعفر .

وفي تصرف الرشيد مع الأصمعي بعد مقتل جعفر إشارة إلى أنه كان يدرك عمق العلاقة بين الرجلين ، وأن يد الخليفة عليه وإحسانه له وقربه منه لن يستل من قلب الأصمعي كراهيته لهذا العمل البشع .

والأصمعي كأي إنسان قرب من السلطان ، وخاصة في العصر العباسي - لم ينج من اللسائس ولم يفلت من المؤامرات التي تحاك للبارزين أمثاله ، فأنهى عهده في بغداد بنهاية البرامكة : إما لاعتقاد الرشيد بصلته بهم ، أو لايقاع خصومه به ، أو لشيء يتعلق بسياسة الفضل بن الربيع ، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة ؛ وهي كما أرى وشيجة الصلة ؛ لما كاد الرشيد ينتهي من قتل جعفر البرمكي حتى أرسل من فوره إلى الأصمعي ، وكان بين يدي الرشيد طست مغطى بمنديل ، فأمر بكشفه ، فإذا رأس جعفر بن يحيى ، فقال الرشيد : لو أن جعفر خاف أسباب الردى لنجا بمهجته طمر ملجم ولكان من حذر المنون بحيث لا يرجو اللحاق به العقاب القشعم لكنه لما تقارب عهده لم يدفع الخلدان عنه منجم الحق بأهلك يا بن قريب ! (٣٥) .

ارتعدت فرائص الأصمعي وداخله الخوف ، فهض ولم يجر جوابا ، قال : فلما أفرخ روعي فكرت في ذلك فوجدته أخذ يعلمني مكره ونكره ودهاءه ؛ ليتحدث بها عنه ، فخرجت وأنا أقول :

أيها المغرور هل لك عبرة في آل برمك
غرهم عن قدر الله م حساب الهشتمرك
عبرة لم تـرد أن ت ولا قبل أب لك

وكانت هذه الأبيات آخر عهده ببغداد ، وكان ما يبدو فيها من هجاء لآل برمك هو

(٣٤) الوزراء والكتاب ١٨٩ ومروج الذهب ٦ : ٣٦٧ ط أوربا .

(٣٥) أخبار التحوين البصريين ٥١ ، مروج الذهب ٦ : ٣٩٩ ، وفيات الأعيان ١ : ٣٠٢ .

الرخصة التي يعبر بها حدود المدينة سليماً معافى ليلحق بأهله في البصرة .
وهكذا أمضى الأصمعي فترة طويلة إلى جانب الرشيد ، عرفه فيها زيدة^(٣٦) والمحافل العلمية ، واكتسب الدراهم ، ولبس حلل الخلفاء^(٣٧) وركب براذنيهم ، واختال بها في شوارع بغداد ثم خفت هذا الضوء ليلمع مرة أخرى في البصرة ، وكان قد ترك في بغداد إلى جانب ما تركه من علم وفضل حسداً وغيره في صدور بعض زملائه العلماء ، وعلى رأسهم إسحق الموصلي الذي كان يرى في الأصمعي غريباً له في صيد الدراهم ، فكتب من فوره إلى صاحب الأمر إذ ذاك الفضل بن الربيع ، يذم الأصمعي ويؤله عليه حتى يقطع آخر فكرة في الإبقاء عليه في بغداد إن كان ثمة فكرة عند الأصمعي أو عند أصحاب الرأي في دار الخلافة ، ولم يدر بخلد الموصلي أن الأصمعي لفرط ما لحق به من الرعب والخوف لم يفكر حتى وفاته أن يدخل بيت الخلافة في يوم من الأيام .

ثم - كتب الموصلي إلى الفضل بن الربيع يشير عليه باستقدام أبي عبيدة في محاولة لسد الفراغ الذي تركه الأصمعي ، فقال :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فإن الفضل عند أبي عبيدة
وفضله وآزره عليه ودع عنك القريد بن القريدة
وتهيأت المناسبة مرة أخرى لأبي عبيدة ، فرأيناه في بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة^(٣٨)
ورأيناه في مجلس الفضل بن الربيع نفسه يناقشه في مسائل من القرآن الكريم ، ويقول :
أقدمناه من البصرة لتفيد من علمه .

(٣٦) دأب الرشيد زيدة فقال لها : يا أم نهر فكادت تغضب ، فاستدعت الأصمعي . وسأله عن معنى النهر ، فقال لها : إنه الطفل الصغير .

(٣٧) قال الأصمعي : ذكرت يوماً للرشيد سليمان بن عبد الملك ، وقلت إنه كان يجلس ويحضر بين يديه الحراف المشوية وهي كما أخرجت من تانيرها ، فيريد أخذ كلاها فتمنعه الحرارة ، فيجعل يده على طرف حلتة ويدخلها في جوف الحروف فيأخذ كلاها ، فقال لي : قاتلك الله ! ما أعلمك بأخبارهم ! أعلم أنه عرضت على ذخائر بني أمية ، فنظرت إلى ثياب مذهبة مبنية وأكمامها ودكة بالدهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثني بالحديث ثم قال : على بياض سليمان ، فأقى بها ، فنظرنا إلى تلك الآثار ظاهرة فيها ، فكسافى منها حلة . وكان الأصمعي إذا خرج فيها يقول : هذه جبة سليمان التي كسائها الرشيد وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٧ .

(٣٨) وفيات الأعيان ٤ : ٣٢٤ .